قاسم أمين

«شمعة تنوير» المرأة

- طالب الحكومات بسن تشريعات تكفل حقوق النساء ومشاركتهن الفعلية فى أمور الوطن وفى مقدمتها السياسية.
- لم ينادِ بسفور المرأة، وكان مؤمنًا بالتزامها بالحجاب.
- جاهد لإنشاء الجامعة المصرية ومات قبل أيام من افتتاحها.

كانت المرأة العربية غارقة، شأن الرجل أيضًا، فى ظلام التخلف، فى القرن التاسع عشر، عندما أطل قاسم أمين بكتابه «تحرير المرأة». واعتبر كثيرون كتابه بمثابة الصدمة، متناسين أنه إنما دعا فى جانب كبير منه إلى العودة إلى جذور الفكر الإسلامى، والتى تنص على أن المرأة إنسانة تستحق أن تعيش بكرامتها، وأن تعمل وتشارك فى الحياة العامة، وأن يكون لها رأيها المسموع.

ولد قاسم أمين فى أول ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٨٦٣م من أب جاء إلى مصر من تركيا وأم مصرية صعيدية، ووالده هو محمد بك أمين، الذى كان يعيش فى «السليمانية» فى العراق، وانتقل إلى اسطنبول فترة من الزمن، ثم عين واليًا على إقليم «كردستان»، الذى كان إحدى الولايات العثمانية، وذلك قبل مجيئه إلى مصر واستقراره فيها.

ثم التحق محمد بك أمين بالجيش المصرى وترقى فيه حتى رتبة «أميرلاى» وشغل منصب قائد سلاح المرابطين. قضى قاسم أمين أولى سنواته التعليمية فى الإسكندرية، فى مدرسة رأس التين الابتدائية، التى كانت مدرسة أبناء الطبقات الأرستقراطية والأثرياء. وبعد حصوله على الشهادة الابتدائية انتقلت الأسرة إلى القاهرة والتحق «قاسم» بالقسم الفرنسى فى المدرسة الخديوية الثانوية، ثم التحق بمدرسة الحقوق والإدارة العليا، وحصل على شهادة الليسانس، قبل أن يصل إلى سن العشرين وكان أول الناجحين عام ١٨٨١م، ثم اتجه قاسم أمين إلى العمل فى المحاماة، فى مكتب صديق والده المحامى الكبير مصطفى فهمى باشا الذى تولى لاحقا، رئاسة الوزراء. وكان قاسم أمين فى ذلك الوقت، شأن الشباب المثقف، فتى وطنيًا متحمسًا، فكان يحضر دروس جمال الدين الأفغانى، وتعرف على محمد عبده وسعد زغلول وعبد الله النديم وأديب إسحاق وغيرهم، وعاصر

مقدمات الثورة العرابية وتداعياتها وتحمس قاسم لكل الأفكار، التى نادى بها أعلام عصره، وتأثر كثيراً بأفكار أستاذه «الأفغانى» وهو يتحدث عن الوطنية والجامعة الإسلامية وتنقية الدين من المفتريات عليه.

ولم يستمر قاسم طويلاً فى العمل فى مكتب المحاماة، وسافر سنة ١٨٨٢م فى بعثة دراسية إلى فرنسا ، وانتظم فى دراسة القانون فى جامعة «مونبلييه». وهناك لمس الحريات التى سادت المجتمع الفرنسى، سواء فى الحرية الاجتماعية ومشاركة المرأة الرجل فى كثير من الأعمال، أم حرية الصحافة والنشر، أم فى الحياة السياسية. وكانت «فرنسا» آنذاك مثلاً أعلى لكل شرقى يسمع عن تقدمها الفكرى وحياتها الراقية وقوتها المادية. وكانت الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر، قد ألقت البذور الأولى لهذه الأفكار والتطور الذى تبعها فى المجتمع الفرنسى.

الجهاد فى الخارج

تعرف «قاسم» أثناء دراسته إلى جوانب الحياة المختلفة فى فرنسا. وكانت أفكار الحرية والعدالة والمساواة والتقدم تعيش داخل أوروبا كلها بينما تتابع الأنباء عن احتلال الإنجليز مصر (عام ١٨٨٢). والتقى قاسم أمين فى باريس عام ١٨٨٤م جمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، الذى حكم عليه بالنفى من البلاد، متهمًا بالتعاون مع الثورة العرابية، واطلع «قاسم» على نماذج من صحيفة «العروة الوثقى» التى أصدرها «الإمام الأفغانى»، للدعوة إلى التحرر السياسى والإصلاح الاجتماعى، والتقت آراؤهم على ضرورة الاستمرار فى الجهاد ضد المحتل. وشكل الإمام الأفغانى جمعية العروة الوثقى السياسية، وانضم إليهما قاسم أمين واتخذه محمد عبده مترجمًا له. وتأثر «قاسم» تأثراً بالغا عندما أخذ يكتب بروح متدفقة، معبراً عما تعلمه وحصده من علوم وأفكار. ولكن لم تطل مدة صدور «جريدة العروة الوثقى» هناك، فقد استطاع الاستعمار البريطانى أن يحاربها فى باريس، وصدر آخر أعدادها فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤م.

وأنهى قاسم أمين دراسته القانونية بتفوق عام ١٨٨٥م وكان من أبرز المتفوقين، وحصل على ميدالية ذهبية من جامعة «مونبلييه». ثم عاد إلى مصر، وصدر فى ديسمبر عام ١٨٨٥م قرار بتعيينه فى النيابة ثم نُقِلَ بعد عامين إلى قسم قضايا الحكومة. وفى يونيو عام ١٨٨٩م، رُقِيَ إلى منصب رئيس نيابة فى بنى سويف. وانتقل عام ١٨٩١م، رئيسًا لنيابة طنطا.

وعُيِّنَ سنة ١٨٩٢م قاضيًا فى محكمة الاستئناف، ثم رُقِيَ بقرار مشترك ضم معه «سعد زغلول»، مستشارًا فى محكمة الاستئناف فى القاهرة عام ١٨٩٤م. وتزوج قاسم أمين فى العام ذاته، بـ «زينب» كريمة أمين توفيق، أمير البحر التركى، التى أنجبت له ابنتين: الكبرى «سيدة» والصغرى «جلسن». واتسمت حياته العائلية بالهدوء والاستقرار.

وطنيته

لم تكن الوطنية عند قاسم أمين لفظًا وشعارًا، يكتفى بترديدهما فى فخر وإعجاب، بل كانت تتخذ عنده شكلا إيجابيًا متى تكون قوة عاملة لخدمة الوطن. وكان يحب وطنه ويؤمن به. وكانت وطنيته هى الدافع للدعوة والإصلاح والتحرر، فهو الطريق الصحيح إلى النهضة والتقدم، وساعدته شخصيته، بما فيها من جرأة وحب على التعمق فى جذور المشكلة، كذلك تجربته المكتسبة من حياته فى أوروبا، ومن توليه منصبه فى القضاء، حتى كان من الأعلام فى محيط القانون والقضاء. ففى عام ١٨٩٤م نشر كتابًا بالفرنسية تحت عنوان «المصريون» ردًا على كتاب وضعه الدوق «داركور» وتهجم فيه على المصريين وعاداتهم وتقاليدهم وعلى المرأة المصرية. وتحدث قاسم أمين فى كتابه عن مميزات الفلاح المصرى وصبره وتفوقه العسكرى، كما تحدث عن المجتمع المصرى والمرأة المصرية، وتعدد الزوجات والإسلام والتعليم والعلوم والآداب. وفى مقالاته التى نشرها فى جريدة «المؤيد» بين عامى ١٨٩٥ و ١٨٩٨م، والتى جمعها فى كتابه «أسباب ونتائج»، تحدث عن الحالة الاقتصادية فى مصر وواجب

العمل، والإقدام على التجارة والصناعة وغيرها. وهاجم فى مقالاته تلك، المصريين الذين تنكروا لوطنيتهم مع أنهم يرتعون فى خيرات الوطن. وتحدث عن وجوب انتقاد «عيوبنا بأنفسنا وعدم إخفاء شىء منها، حتى لا نغفل عن تلافيها».

وكانت حياته مليئة بالصور العملية لوطنيته. فعندما تولى منصب رئيس نيابة بنى سويف، كان أول عمل قام به هو إطلاق سراح الوطنيين، الذين سجنتهم الإدارة عدوانًا وظلمًا. ومن مظاهر وطنية «قاسم» أيضا أنه كان يستعد للسفر إلى الصعيد للتحقيق فى إحدى القضايا، عندما طلب منه أن يتخذ له حارسًا إنجليزيًا فى رحلته، فرفض قاسم، وقال «كلبى آأمن من أى إنجليزى». وعاد إلى القاهرة بعد ذلك ليجد تظاهرات الطلبة فى كل مكان، ولجأ إليه أحد الطلبة ممن اتهموا بالتحريض على الاضطرابات وقدموا للمحكمة، وحكم عليه بالسجن، فى دائرة غير دائرة قاسم، فلجأ إليه لما عرف عنه من وطنية. وأخفاه قاسم فى بيته أكثر من عام، حتى استطاع أن يستصدر عفوًا شاملاً عنه.

وكان عام ١٨٩١م رئيسًا لنيابة طنطا، عندما واجهته حادثة وقف إزاءها يبحث عن خيار بين ما يفرضه عليه القانون وما تدعوه إليه الوطنية والوفاء للوطن. فقد سلَّم عبد الله النديم نفسه للشرطة بعد اختفاء «أسطورى» دام تسع سنوات، وكان من أبرز زعماء الثورة العرابية وأصلب قادتها. وجىء به إلى رئيس النيابة آنذاك قاسم أمين، فأكرم لقاءه وأعطاه مالاً من عنده، وهيأ له فى السجن أقصى ما يمكن من الرعاية والراحة، ثم قرر أن يسعى لدى المسؤولين فى القاهرة ليفرجوا عنه. وبعد حملة صحافية قادها بنفسه أعلن عام ١٨٩١م العفو عن عبد الله النديم بقرار من مجلس الوزراء والاكتفاء بإبعاده إلى الشام.

التطور والالتزام

ولما كانت الأم هى المربية الأولى للأسرة، فإن قاسم أمين كان يرى أن المرأة المصرية لم تُهيأ بعد، للقيام بهذه الوظيفة المهمة. فهى لم تتم تربيتها على أسس سليمة، تعدها للقيام بهذا الدور، وقارن بين المرأة المصرية والمرأة الأوروبية، تلك

المقارنة، التى كانت موضوع كتابه «تحرير المرأة» عام ١٨٩٩م، ثم أتبعه بكتاب آخر هو «المرأة الجديدة» عام ١٩٠٠م.

الكتاب الأول شرح فيه أن حالة المرأة فى البيئة الاجتماعية تابعة لحالة الآداب فى الأمة. ثم تحدث عن تربية المرأة وعن السفور والحجاب، من الوجهتين الدينية والاجتماعية وعن العائلة والزواج والطلاق، راجعًا فى ذلك إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، مطالبًا بإنصاف المرأة وتثقيفها وتحريرها من الجهل، ومن جهل الرجل بحقوقها المشروعة.

وعرّف فى كتابه الثانى المرأة الجديدة بأنها «ثمرة من ثمرات التمدن الحديث، بدأ ظهورها فى الغرب، على أثر الاكتشافات العلمية، التى خلّصت العقل الإنسانى من سلطة الأوهام والظنون والخرافات، ومع اختفاء الأنثى، التى كانت منغمسة فى اللهو والزينة، ظهرت مكانها امرأة جديدة هى المرأة شريكة الرجل فى تكوين ملامح الحياة الاجتماعية الجديدة». ودعا إلى خروج المرأة للأعمال التى تلائمها، كالتعليم والطب. وطالب بالاعتراف لها بحق الاشتغال بالأعمال التى تراها لازمة للقيام بمعاشها، وأن هذا الحق يستدعى الاعتراف لها بأن توجه تربيتها إلى الطرق التى تؤهلها للانتفاع بجميع قواها وملكاتها ومفرداتها الجديدة.

دعوة التحرير

لم يكن قاسم أمين أول من تناول موضوع الدعوة، لتعليم المرأة وخروجها للمشاركة فى وظائف المجتمع إلى جانب الرجل. فقد سبقته نخبة من الأعلام والمصلحين، الذين تناولوا هذا الموضوع، ومنهم رفاعة الطهطاوى وأحمد فارس الشدياق، وكذلك عبد الله النديم، فى مقالاته التى كان ينشرها على صفحات جريدته «الأستاذ» وسبقه على مبارك والشيخ محمد عبده، الذى كان يرى فى دعوته إلى الإصلاح أن من محاسن الإسلام مساواة المرأة بالرجل فى الأمور الجوهرية.

وحينما نظر قاسم أمين إلى أسباب جوانب الضعف فى المجتمع المصرى،

وجد من هذه الأسباب جهل المرأة وغيابها عن المشاركة الإيجابية فى المجتمع، مما يضعف التربية القومية، وأنه من المستحيل أن تتحقق نهضة شاملة مالم تكن الأمهات قادرات على تهيئة جيل جديد للنجاح. فالمرأة الشرقية تستطيع، إذا تخلصت من تخلفها، أن تخدم بلادها فى كل المجالات، شأنها فى ذلك شأن المرأة الأوروبية، التى أصبح له دور رئيسى فى تحقيق النهضة لبلادها. وقام قاسم أمين بدعوته الإصلاحية هذه فى كتابه «تحرير المرأة».

وتتلخص نظرة قاسم أمين الإصلاحية، فى الدعوة إلى تربية النساء باعتبارهن القاعدة الأهم للإصلاح الاجتماعى، لما تملكه الأم من قدرات فى تخريج الأجيال الصالحة. ولاحظ ارتفاع نسبة الوفيات فى الأطفال، بسبب جهل الأم المصرية، بالثقافة الصحية، فى ذلك الوقت، وقال إن جهلها يحول بينها وبين فهم زوجها فهمًا صحيحًا، مما قد يؤدى إلى فشل الحياة الزوجية.

أما دورها بالنسبة إلى المجتمع فيكون بتمكينها من المشاركة فى الأعمال الخيرية وخدمة مجتمعها. والمرأة إلى جانب ذلك كله إنسان فهى لا تختلف عن الرجل فى الإحساس والفكر والحاجة إلى الانتفاع بالعلم والتمتع بلذته.

الإلتزام بالحجاب الشرعى

وعلى خلاف ما تردد من معارضيه لم يطلب قاسم أمين من المرأة السفور وأن تخلع الحجاب تمامًا لكنه طلب الالتزام بالحجاب الشرعى، الذى تأمر به الشريعة الإسلامية، والذى يتيح للمرأة ممارسة حياتها العادية بصورة ميسرة. وفى ذلك يقول: «إننى لا أزال أدافع عن الحجاب وأعتبره أصلاً من أصول الأدب، التى يلزم التمسك بها. غير أنى أطلب أن يكون منطبقًا على ما جاء فى الشريعة الإسلامية».

وتساءل قاسم أمين: كيف يمكن التعامل مع المرأة فى ميدان التجارة مثلاً أو إبرام العقود دون رؤية وجهها، الذى يثبت شخصيتها. فبغير هذه الرؤية يسهل الغش والتزوير فى المعاملات كما أظهرت الوقائع القضائية. ولم يكن طلبه أن

ترفع المرأة الحجاب السائد آنذاك دفعة واحدة، حتى لا يؤدى ذلك إلى حدوث مفاسد لما يحدث عادة فى كل تغيير مفاجئ، وإنما طالب بإعداد نفوس البنات لهذا التغيير فى زمن الصبا. وأدرك قاسم أمين أن افتقار المرأة إلى الاستقلال الاقتصادى، وبعدها عن ميادين العمل المنتج فى المجتمع يجعلانها تابعة خاضعة للرجل، الذى ييسر لها القوت ويضمن لها ضروريات الحياة فهو يقول: «إن إعفاء المرأة من أول واجب عليها وهو التأهيل، لكسب ضروريات الحياة بنفسها، هو السبب الذى أدى إلى ضياع حقوقها».

ولم يناد قاسم أمين بخروج المرأة إلى ميدان العمل، إلا فى حالات الضرورة التى تحتمها الظروف. كأن يتوفى الزوج، أو يكون محتاجًا إلى مساعدتها، أو فى حالة عدم زواجها، أو إذا لم يكن لها من يلتزم بتوفير حاجاتها.

نقد واحتجاج

وأثارت هذه الآراء عاصفة من النقد والاحتجاج، وقام العديد من الكتاب بالرد عليه ولكنه لم يضعف أمامهم، فأصدر كتابه الثانى وأضاف إليه مقالات عن المجتمعات المتحضرة، ولم يقف فى دعوته عند حد مطالبته الحكومة بإقامة التشريع وسن القوانين، التى تكفل حقوق المرأة، بل ذهب إلى أن كل تشريع للمرأة يجب أن يؤدى إلى إشراكها فى وظائف الحكم اشتراكًا فعليًا، وطالب بحقوق المرأة السياسية كما هو الحال فى الدول المتقدمة.

وكان آخر أعمال قاسم أمين توليه رئاسة اللجنة الخاصة بإنشاء الجامعة المصرية خلفًا لسعد زغلول، بعد تعيينه ناظرًا للمعارف. وكان آخر خطاب لقاسم أمين عن الجامعة والتعليم الجامعى، المرجو لمصر والمصريين فى ١٥ أبريل سنة ١٩٠٨م. وقد وافته المنية فجأة بعد ثمانية أيام من ذلك التاريخ ليلة ٢٣ أبريل سنة ١٩٠٨م، حيث كانت مصر تستعد للاحتفال بافتتاح الجامعة المصرية.